وكلمة عثا [1]، يَعْثى ، ويعثو ، وعثى . يعثى ؛ كلها تعنى : زاول فساداً ، أى : أن يعمد الإنسان إلى الصالح فى ذاته فيفسده ، مثل طَمْر بئر ماء ، أو حفر طريق يسير فيه الناس ، وهو كل أمر يخرج الصالح - فى ذاته - عن صلاحه .

والمجتمع كله - بكل فرد فيه - مأمور بعدم مزاولة الفساد ، ولو طبَّق كل واحد ذلك لصار المجتمع كله صالحاً ، ولكن الآفة أن بعض الناس يحب أن يكون غيرهُ غير مفسد ، ولكنه هو نفسه يفسد ، ولا يريد من أحد أن يعترض عليه .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ بَقِيَّتُ [2] ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ [3] ﴿٨٦﴾ ﴾

أى : ما يبقى لكم من الأمر الحلال خير لكم ؛ لأن من يأخذ غير حقه يخطىء ؛ لأنه يزيل البركة عن الحلال بالحرام ؛ فمن يأخذ غير حقه يسلط الله عليه أبواباً تنهب منه الزائد عن حقه .

وأنت تسمع من يقول : «فلان هذا إنما يحيا فى بركة» ، أى : أن دخله قليل ، ولكن حالته طيبة ، ويربى أولاده بيسر ، على عكس إنسان آخر قد يكون غنيّاً من غير حلال ، لكنه يحيا فى ضنك [4] العيش .

---

(١) عثا يعثو ويعثى ، وعثى يعثى ، عثواً وعثياً : أفسد أشد الإفساد . قال تعالى : ﴿ .. وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [هود] ومفسدين حال مؤكدة لمعنى تعثوا . [القاموس القويم ٢/ ٧] .

(٢) البقية : ما بقى من الشىء أو ما استحق أن يبقى لما فيه من النفع والخير للناس . وتطلق البقية على الشىء الباقى . قال تعالى : ﴿ بَقِيَّتُ اللهِ خَيْرٌ لَّكُمْ .. ﴿٨٦﴾ ﴾ [هود] أى : ما أبقاه الله وادخره لكم من الثواب خير . [القاموس القويم ١/ ٧٩] .

(٣) حفيظ : رقيب عليكم ويجازيكم بأعمالكم . [كلمات القرآن] بتصرف .

(٤) ضنك الشىء : ضاق . والضنك : الضيق من كل شىء وهو مصدر يوصف به ؛ فيستوى فيه المذكر والمؤنث والمفرد وغيره . قال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا .. ﴿١٢٤﴾ ﴾ [طه] أى : ضيقة غير متسعة . [القاموس القويم ١/ ٣٩٥] .

وقد تجد هذا الإنسان قد انفتحت عليه مصارف الدنيا فلا يكفى ماله لصد همومه ، لأن الله سبحانه قد جرَّأ عليه مصارف سوء متعددة.

وقد يستطيع الإنسان أن يخدع غيره من الناس ، ولكنه لن يستطيع أن يخدع ربه أبداً [1].

وقول الحق سبحانه:

﴿ بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ .. (٨٦) ﴾ [هود]

أى: أن الله تعالى يُذهب - عمن يراعى حقوق غيره - مصارف السوء.

وسبق أن قلنا قديماً: فلننظر إلى رزق السلب لا إلى رزق الإيجاب ؛ لأن الناس فى غالبيتها تنظر إلى رزق الإيجاب ، بمعنى البحث عن المال الكثير ، وينسون أن الحق سبحانه وتعالى قد يسلط مصارف السوء على صاحب المال الكثير الذى جمعه من غير حق ، بينما يسلب عن الذى يرعى حقوق الناس تلك المصارف من السوء [2].

ومن يُربُّون أولادهم من سُحْت [3] أو حرام ، لا يبارك الله فيهم ؛ لأن هناك فى تكوينهم شيئاً حراماً. فنجد - على سبيل المثال - ابن المرتشى يأخذ دروساً خصوصية ويرسب ، بينما ابن المنضبط والملتزم بتحصيل

---

(١) يقول رب العزة سبحانه: ﴿ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (٩) ﴾ [البقرة] ، ويقول سبحانه: ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ .. (١٤٢) ﴾ [النساء]، ويقول عز وجل: ﴿ وَإِن يُرِيدُوا أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ .. (٦٢) ﴾ [الأنفال].

(٢) يقول الحق سبحانه: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا (١٢٥) قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ (١٢٦) ﴾ [طه].

(٣) السحت: المال الذى يكتسب من وجه حرام كالرشوة وما أخذ بالغش والخداع. قال تعالى: ﴿ سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ .. (٤٢) ﴾ [المائدة] ، وقال تعالى: ﴿ وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ .. (٦٢) ﴾ [المائدة]. [القاموس القويم] بتصرف.

الكسب الحلال مقبل على العلم وناجح. أو قد يرزق الله تعالى صاحب المال الحرام زوجة لا يرضيها أى شىء، بل تطمع فى المزيد دائماً، بينما يعطى الله سبحانه من يرعى حقوق الناس زوجة تقدر كل ما يفعله.

يقول الحق سبحانه:

﴿ بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ..(٨٦) ﴾ [هود]

أى: إن كنتم مؤمنين بأن الله تعالى رقيب، وأنه سبحانه قيُّوم؛ فلا تأخذ حقاً غير حقك؛ لأنك لن تستغل إلا نفسك؛ لأن الله سبحانه وتعالى رقيب عليك.

ويُنهى الحق سبحانه الآية بقوله:

﴿ .. وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ (٨٦) ﴾ [هود]

أى: أن شعيباً ﷺ قد أوضح لأهل مدين: أنا لن أقف على رأس كل مفسد لأمنعه من الإفساد؛ لأن كل إنسان عليه أن يكون رقيباً على نفسه ما دام قد آمن بالله سبحانه، وما دام قد عرف أن الحق سبحانه قد قال:

﴿ بَقِيَّتُ(١) اللَّهِ .. (٨٦) ﴾ [هود]

أى: أن ما يبقى إنما تشيع فيه البركة.

وهذه هى فائدة الإيمان: ما يأمر به وما ينهى عنه.

وهذا أمر يختلف عن القانون الوضعى؛ لأن عين القانون الوضعى قاصرة عما يخفى من أمور الناس فكأنها تحميهم من الوقوع تحت طائلته .. أما القانون الإلهى فهو محيط بأحوال الناس المعلنة، والخافية.

(١) جاءت التاء فى (بقيت) فى رسم القرآن مفتوحة التاء، قال الزركشى فى «البرهان ١/ ٤١٣»: «مدت تاؤه، لأنه بمعنى ما يبقى فى أموالهم من الربح المحسوس، لأن الخطاب إنما هو فيها من جهة الملك».

ومن يتأمل الآيات الثلاث :

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ (٨٤) وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٨٥) بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ (٨٦) ﴾ [هود]

من يتأمل هذه الآيات يجد عناصر الصيانة للحركة فى المجتمع كله ، والمجتمع إن لم تُصَنْ حركته يفسد ؛ لأن حركة المجتمع أرادها الحق سبحانه حركة تكاملية ، لا تكرار فيها ؛ ولو تكررت المواهب لما احتاج أحد إلى مواهب غيره .

والمصلحة العامة تقتضى أن يحتاج كل إنسان إلى موهبة الآخر ، فمن يدرس الدكتوراه فهو يحتاج إلى من يكنس الشارع ، ومن يعالج الناس ليشفيهم الله نجده يحتاج إلى من يقوم بإصلاح المجارى .

وماذا كان رد أهل مدين على قول شعيب ؟

يقول الحق سبحانه :

﴿ قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ[1] الرَّشِيدُ (٨٧) ﴾

---

(١) الحليم : من أسماء الله الحسنى . قال تعالى : ﴿ .. وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ (٢٣٥) ﴾ [البقرة] ووصف الله خليله إبراهيم عليه السلام بقوله : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ (٧٥) ﴾ [هود] وأما قوله تعالى : ﴿ .. إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ (٨٧) ﴾ [هود] فهو وصف بالحلم والرشد على سبيل التهكم من الكفار برسولهم شعيب عليه السلام . [القاموس القويم ١/ ١٧٠] .

أى: أيأمرك إلهك ودينك أن نترك ما يعبد آباؤنا ؟

ولقائل أن يقول: ولماذا قالوا: «أصلاتك» ؟

نقول : لأن الإسلام بُنِىَ على خمس [(١)] : أولها شهادة ألاَّ إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ؛ ويكفَى أن يقولها الإنسان مرة واحدة فى حياته كلها ، ثم إقامة الصلاة ، وبعد ذلك إيتاء الزكاة ، ثم صوم رمضان ، ثم حج البيت لمن استطاع إليه سبيلاً .

وأنت إن نظرت إلى هذه الأركان فقد تجد إنساناً لا يملك ما يزكِّى به أو ما يحج به ، وقد يكون مريضاً فلا صوم عليه ، وهو ينطق بالشهادة مرة واحدة فى حياته ، ولا يبقى فى أركان الدين إلا الصلاة ؛ ولذلك يقال عنها: «عماد الدين من أقامها فقد أقام الدين ، ومن تركها فقد هدم الدين» [(٢)] ؛ لأنها الركن الوحيد الذى يعلن العبد فيه الولاء لربه كل يوم خمس مرات ، دواماً فى الولاء لله .

ولا تسقط الصلاة أبداً عن أى إنسان مهما كانت ظروفه ، فإن عجز عن الحركة ؛ [(٣)] فله أن يصلى برموش عينيه ، وإن عجز عن تحريك رموش عينيه فَلْيُجْر الصلاة على قلبه ، حتى فى حالة الحرب والمسايفة [(٤)]

---

(١) عن ابن عمر رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ : «بنى الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلاً» متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٨) ومسلم فى صحيحه (١٦) .

(٢) قال الحافظ العراقى فى تخريجه للإحياء (١/ ١٤٧) : «رواه البيهقى فى الشعب بسند ضعفه من حديث عمر» . وقال الملا على القارى فى «الأسرار المرفوعة (حديث ٥٧٨)» : «قال ابن الصلاح فى «مشكل الوسيط» : إنه غير معروف . وقال النووى فى التنقيح : إنه منكر باطل . لكن رواه الديلمى عن على كما ذكره السيوطى فى الدرر المنتثرة (ح ٢٧٩) .

(٣) من حصل له عذر من مرض ونحوه لا يستطيع معه القيام فى الفرض يجوز له أن يصلى قاعداً ، فإن لم يستطع القعود صلَّى على جنبه يومىء بالركوع والسجود . راجع فقه السنة (١/ ٢٣٤) .

(٤) إذا اشتد الخوف والتحمت الصفوف صلَّى كل واحد حسب استطاعته راجلاً أو راكباً مستقبلاً القبلة أو غير مستقبلها يومىء بالركوع والسجود كيفما أمكن ، ويجعل السجود أخفض من الركوع ويسقط عنه من الأركان ما عجز عنه . [فقه السنة - ١ / ٢١٠] .

فالإنسان المسلم يصلى صلاة الخوف[1].

إذن: فالصلاة هى الركن الذى لا يسقط أبداً، ويُكرَّر فى اليوم خمس مرات، وقد أعطاها الحق سبحانه فى التشريع ما يناسبها من الأهمية.

وكل تكليفات الإسلام جاءت بوحى من الله سبحانه وتعالى، فجبريل ﷺ يحمل الوحى إلى الرسول ﷺ؛ ويبلغنا الرسول ﷺ إياه، وتميزت الصلاة وحدها بأن الحق سبحانه قد كلَّف بها النبى ﷺ فى أثناء وجوده فى الملأ الأعلى؛ عند سدرة المنتهى[2]، وذلك لفرط أهميتها.

ومثال ذلك من حياتنا - ولله المثل الأعلى - نجد الرئيس فى أى موقع من مواقع العمل؛ وهو يستقبل البريد اليومى المتعلق بالعمل، ويحول كل خطاب إلى الموظف المختص ليدرسه أو ليقترح بخصوصه اقتراحاً، وإذا وجد الرئيس أمراً مهماً قادماً من أعلى المستويات؛ فهو يستدعى الموظف المختص؛ ويرتب معه الإجراءات والترتيبات الواجب اتخاذها؛ وإذا كان هذا يحدث فى الأمور البشرية، فما بالنا بالتكليف من الله سبحانه وتعالى للرسول؟

وقد شاء الحق سبحانه أن يكون تكليف الصلاة - لأهميته - هو التكليف الوحيد الذى نال تلك المنزلة؛ لأنها الركن الذى يتكرر خمس مرات فى اليوم الواحد؛ ولا مناص[3] منه.

---

(١) ثبتت صلاة الخوف بكتاب الله، فقال: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِن وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً .. (١٠٢)﴾ [النساء] قال الإمام أحمد: «ثبت فى صلاة الخوف ستة أحاديث أو سبعة أيها فعل المرء جاز». وذكر الشيخ السيد سابق ست كيفيات لصلاة الخوف فى فقه السنة (١/ ٢٠٨ - ٢١٠) وانظر أحكام القرآن للجصاص (٢/ ٣٢٢ - ٣٣٢).

(٢) فرضت الصلاة مباشرة ليلة الإسراء والمعراج لشرفها، ولأنها جماع العبادات، ففيها الشهادة والزكاة والصوم والحج، لذلك لم تسقط عن المكلف. من مفهوم خواطر الشيخ.

(٣) لا مناص: لا بد ولا مهرب. وناصَ، ينوص: فرَّ هارباً. وناص من المكروه: نجا منه وخلص. قال تعالى: ﴿.. وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ (٣)﴾ [ص] أى: ليس الحين حين فرار وهروب من العذاب المحيط بهم، أو ليس الحين حين نجاة وخلوص من العذاب. [القاموس القويم] بتصرف.

فأنت قد لا تنطق الشهادة إلا مرة واحدة ؛ لكنك تقولها فى كل صلاة.

وفى الزكاة تضحًى ببعض المال ؛ وأنت لم تولد ومعك المال ؛ إلا إن كنت قد ورثت وأنت فى بطن أمك ؛ ولابد أن تزكًّى من مالك ؛ والمال لا يأتى إلا من العمل ؛ والعمل فرع من الوقت ؛ وأنت فى الصلاة تضحًّى بالوقت نفسه ؛ والوقت أوسع من دائرة الزكاة.

وفى الصيام أنت تمتنع عن شهوتى البطن والفرج ؛ من الفجر إلى المغرب ؛ لكنك تمارس كل أنشطة الحياة ؛ أما فى الصلاة فأنت تصوم عن شهوتى الفرج والطعام ؛ وتصوم أكثر عن أشياء مباحة لك فى الصيام.

وفى الحج أنت تتوجه إلى بيت الله الحرام ؛ وأنت فى كل صلاة تتوجه إلى بيت الله الحرام.

وهكذا تجتمع كل أركان الإسلام فى الصلاة.

وأهل مدين هنا - فى الآية الكريمة التى نحن بصدد خواطرنا عنها - قد هزءوا برسولهم شعيب عليه السلام ، وصلاته ؛ مثلما فعل كفار قريش مع رسول الله ﷺ.

وقال أهل مدين لشعيب عليه السلام:

﴿ أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ .. (٨٧) ﴾ [هود]

وظنوا أنهم بهذا القول إنما يتهكمون عليه ؛ لأن شعيباً كان كثير الصلاة ؛ وهم - ككفار قريش - يجهلون أن الصلاة تأمر وتنهى.

والحق سبحانه يقول:

﴿ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ [١] وَالْمُنكَرِ ..(٤٥) ﴾ [العنكبوت]

إذن: فللصلاة [٢] أمر ، وللصلاة نهى، وما دام قد ثبت لشيء حكم ؛ يثبت له مقابله، وأنت تسمع من يقول لآخر: أنت تصلى لذلك فأنا أثق فى أمانتك وتسمع إنساناً آخر ينصح صديقاً بقوله: كيف تسمح لنفسك أن ترتكب هذا الإثم وأنت خارج من الصلاة ؟ [٣]

وكثير من الناس يغفلون عن أن التقابل فى الجهات إنما يحل مشاكل متعددة ؛ فيأخذون جهة ويتركون الأخرى.

ولذلك أقول: ما دام الحق سبحانه قد قال إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، فلا بد أنها تأمر بالبر والخير [٤].

ومثال آخر : نجده فى قول الحق سبحانه عن غرق قوم فرعون:

﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ ..(٢٩) ﴾ [الدخان]

---

(١) الفحشاء: الفحش هو العمل القبيح المنكر. قال تعالى: ﴿ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ ..(٢٦٨) ﴾ [البقرة] أى: يأمركم بالبخل أو فعل القبيح - عامة - ومنه البخل. والفاحشة: الفعلة القبيحة. والفواحش: الأمور القبيحة. وقد فَحَشَ وفَحُشَ فُحْشاً فهو فاحش: أى: جاوز الحد، وفَعل القبيح. [القاموس القويم ٢/ ٧٣].

(٢) لأن الصلاة فعلت استجابة لأمر الآمر ، وهى تشتمل على آيات القرآن الكريم ، والآيات إما آيات آمرة ، وإما آيات ناهية ، وما فيها من إحرام وركوع وسجود يدل على استقبالها بقلب منيب فى استجابة خاشعة ، فكل ما فيها هو نافع لك أمراً أو نهياً ؛ لذلك كانت الصلاة مدرسة تنهى عن الفحشاء والمنكر .

(٣) عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ : «من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد بها من الله إلا بعداً» أخرجه الطبرانى فى معجمه الكبير (١١/ ٥٤) وعزاه ابن كثير لابن أبى حاتم فى تفسيره، وذكره الهيثمى فى المجمع (٢/ ٢٥٨) وقال: فيه ليث بن أبى سليم ثقة مدلس».

(٤) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال: إن فلاناً يصلى بالليل ، فإذا أصبح سرق. قال: «إنه سينهاه ما تقول». أخرجه أحمد فى مسنده (٢/ ٤٤٧) والبزار (١/ ٣٤٦ - كشف الأستار) وابن حبان (ص ١٦٧ - موارد الظمآن). قال الهيثمى فى المجمع (٢/ ٢٥٨): «رجاله رجال الصحيح».

وما دام الحق سبحانه وتعالى قد نفى بكاء السموات والأرض على قوم فرعون ؛ ففى المقابل فلا بد أنها تبكى على قوم آخرين [1] ؛ لأن السموات والأرض من المسخّرات للتسبيح ، وقال الحق سبحانه عنهما :

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ [2] عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا .. (٧٢) ﴾ [الأحزاب]

وبهذا القول اختارت كل من السموات والأرض مكانة الكائنات المسبِّحة، مصداقاً لقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِن [3] مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ..(٤٤) ﴾ [الإسراء]

فإذا رأت السموات والأرض إنساناً مُسبِّحاً ؛ فلا بد أن تحبه ، وإن رأت إنساناً كافراً، معانداً ؛ فلا بد أن تكرهه .

وما دامت السموات والأرض لم تبكِ على قوم فرعون ؛ فذلك لأنهم ضالون ؛ لأنها لا تبكى إلا على المهديين .

وقد حلَّ لنا الإمام على بن أبى طالب - كرم الله وجهه - هذه المسألة ؛ فقال : « إذا مات المؤمن بكى عليه موضعان : موضع فى الأرض، وموضع

---

(١) عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال : « ما من عبد إلا وله فى السماء بابان : باب يخرج منه رزقه ، وباب يدخل منه عمله وكلامه فإذا مات فقداه وبكيا عليه وتلا هذه الآية ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ .. (٢٩) ﴾ [الدخان] - وذكر - أنهم لم يكونوا عملوا على الأرض عملاً صالحاً يبكى عليهم ولم يصعد لهم إلى السماء من كلامهم ولا من عملهم كلام طيب ولا عمل صالح فتفقدهم فتبكى عليهم » .

(٢) الأمانة : مصدر أمنَ فهو أمين ، « تطلق الأمانة على الوديعة نفسها . قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا .. (٥٨) ﴾ [النساء] أى : الودائع . وقال تعالى : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ .. (٧٢) ﴾ [الأحزاب] فالأمانة هنا مستعارة للتكاليف الشرعية من أوامر ونواه وأحكام وعقائد وعبادات وأخلاق . [القاموس القويم ١ / ٣٥] .

(٣) إن - هنا - نافية بمعنى « ما » أو « ليس » . أى : ما من شىء خلقه الله إلا يسبح بحمد الله تعالى .

في السماء ، أما موضعه الذى فى الأرض ؛ فمصلاّه، وأما موضعه فى السماء فمصعد عمله »[1].

لأن موضعه الذى كان يصلى فيه ؛ يُحرم من أن واحداً كان يصلى فيه، وأما موضعه الذى كان يصعد منه عمله ؛ فيفتقد رائحة عبور العمل الصالح .

فإن أردت بالصلاة الدين ؛ وهى رمز الدين ؛ فللصلاة أمر هو نفس أمر الدين، وهى الأمر بالإيمان الحق، لأن الإيمان المقلد لا نفع له .

إذن: فقد أراد أهل مدين التهكم على دعوة شعيب لهم ؛ وتساءلوا:

﴿ أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا .. (٨٧) ﴾ [هود]

وهذا القول يحمل أيضاً ردهم على دعوته لهم ألاّ يعبدوا غير الله ؛ فلا إله غيره ؛ وردوا كذلك على دعوته لهم ألاّ ينقصوا الكيل والميزان ؛ وألاّ يبخسوا[2] الناس أشياءهم ؛ وأن يتيقنوا أن ما يبقى عند الله هو الخير لهم، وألا يعثوا[3] فى الأرض مفسدين.

وقالوا: أتنهانا أيضاً عن أن نفعل بأموالنا ما نشاء ؟ وكأنهم قد عميت بصيرتهم ؛ لأنهم إن أباحوا لأنفسهم أن يفعلوا بأموالهم ما يشاءون ؛

(١) أورده ابن كثير فى تفسيره (٤/ ١٤٢) وعزاه لابن أبى حاتم أن عباد بن عبد الله قال: سأل رجل علياً رضى الله عنه: هل تبكى السماء والأرض على أحد؟ فقال له: لقد سألتنى عن شىء ما سألنى عنه أحد قبلك، إنه ليس من عبد إلا له مُصلّى فى الأرض ومصعد عمله من السماء، وإن آل فرعون لم يكن لهم عمل صالح فى الأرض ولا عمل يصعد فى السماء، ثم قرأ على رضى الله عنه : ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ (٢٩) ﴾ [الدخان].

(٢) بخسه حقه بخساً: نقصه حقه ولم يوفه. قال تعالى: ﴿ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ .. (٨٥) ﴾[هود] . [القاموس القويم ١/ ٥٦].

(٣) عثا يعثو: أفسد أشد الإفساد. قال تعالى: ﴿ .. وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٦٠) ﴾ [البقرة] ، فكونهم لا يوفون المكيال ولا الميزان بل يخسرونه، ويبخسون الناس أشياءهم هذا هو قمة الإفساد فى الأرض.

فغيرهم سيبيحون لأنفسهم أن يفعلوا بأموالهم ما يشاءون ؛ وستصطدم المصالح ، ويخسر الجميع .

وقولهم: ﴿ .. إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ ﴾ [هود]

استمرار في التهكم الذي بدءوه بقولهم :

﴿ أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ..﴿٨٧﴾ ﴾ [هود]

مثلهم في ذلك مثل منافقي المدينة الذين قالوا للأنصار :

﴿ لا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ [(١)] عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا [(٢)] ..﴿٧﴾ ﴾ [المنافقون]

وكانوا يريدون أن يضربوا المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار ؛ وقد قالوا : ﴿ رَسُولِ اللَّهِ ﴾ تهكماً ؛ وهم يحرضون أثرياء المدينة على تجويع المهاجرين .

ومثلهم - أيضاً - مثل قوم لوط حين نهاهم عن فعل تلك الفاحشة ؛ فقالوا تهكماً منه وممن آمن معه :

﴿ .. أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ [(٣)] ﴿٨٢﴾ ﴾ [الأعراف]

فهل تطهرهم علة للإخراج من القرية ، ولكنهم قالوا هذا لأنهم لا يريدون أن يكون بينهم من يعكر ما هم فيه .

وهذا مثلما نسمع في حياتنا من يقول : «لا تستعن بفلان لأنه حنبلي» .

(١) المقصود بهم : المهاجرون الذين كان رسول الله ﷺ قد آخى بينهم وبين الأنصار بعد قدومه إلى المدينة ، وكان زعيم هذه المقالة هو عبد الله بن أبي بن سلول ، وكان من مُقتضَى هذه المؤاخاة أن يشارك المهاجر الأنصاري في ماله وداره ، بل إن بعض الأنصار وصل به الأمر أن عرض أن يطلق إحدى زوجاته ليتزوجها المهاجري . انظر كتب السيرة وتفسير ابن كثير (٤/ ٣٧٠) .

(٢) أي : حتى ينفضّوا من حول رسول الله ﷺ وينصرفوا عنه . يقال : انفضَّ الناس : تفرقوا وانصرفوا . [راجع القاموس القويم ٢/ ٨٤] .

(٣) قال مجاهد : أي : إنهم يتطهرون من أدبار الرجال وأدبار النساء . قالوا هذا استهزاء بهم . وقال قتادة : عابوهم بغير عيب ، وذموهم بغير ذم . انظر : الدر المنثور للسيوطي (٣/ ٤٩٦) .

هم - إذن - قد قالوا:

﴿.. إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ (٨٧)﴾ [هود]

وهذا منطق السخرية منه ؛ لأنه لم يوافقهم على عبادة غير الله ؛ ولم يوافقهم على إنقاص الكيل والميزان ؛ ونهاهم عن بَخْس الناس أشياءهم.

وإذا قيل حُكْمٌ وهو حقٌّ ؛ ويقوله من لا يؤمن به ؛ فهو يقصد به الهُزْء والسخرية.

وهو لون من التهكم جاء في القرآن الكريم في مواضع متعددة ؛ فنجد الحق سبحانه يقول لمن تجبر وطغى في الدنيا ؛ ويلقى عذاب السعير في الآخرة:

﴿ذُقْ (١) إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ (٤٩)﴾ [الدخان]

وكذلك يقول الحق سبحانه:

﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ (٢) .. (٢٩)﴾ [الكهف]

---

(١) ذاق الشيء يذوقه ذوقاً وذواقاً: أدرك طعمه في فمه وتستعمل مجازاً في الإحساس العام، كقوله تعالى: ﴿لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ .. (٥٦)﴾ [النساء]، ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ .. (١٨٥)﴾ [آل عمران]، وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ .. (٢٢)﴾ [الأعراف]. القاموس القويم صـ ٢٤٧ جـ ١.

(٢) استغاث: طلب الغوث والمساعدة؛ واستغاث فلاناً واستغاث به: استنصره واستعان به. قال تعالى: ﴿فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ .. (١٥)﴾ [القصص] أي: استنصره. وغاثه الله يغوثه غوثاً: نصره وأعانه. وأغاثه، وغاثه: نصره وأعانه. والمهل (بضم الميم): المعدن المذاب، والقطران، وعكر الزيت المغلي، والقيح. قال تعالى: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ .. (٢٩)﴾ [الكهف]. [القاموس القويم ٢/ ٦٢].

وفى كُلٍّ من القولين تهكم وسخرية، وكذلك قولهم فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها :

﴿ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ .. ⟨٨٧⟩ ﴾ [هود]

وهذا قول يحمل التهكم بصلاته .

وكذلك قولهم:

﴿ .. إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ [1] الرَّشِيدُ ⟨٨٧⟩ ﴾ [هود]

يعنى التساؤل: كيف يصح لك وأنت العاقل الحليم أن تتورط وتقول لنا:

﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ .. ⟨٨٤⟩ ﴾ [هود]

وقد قالوا ذلك لأنهم قد ألفوا عبادة الأصنام ، وكذلك تهكموا على دعوته لهم بعدم إنقاص الكيل والميزان.

وأيضاً لم يقبلوا منه قوله بأن يحسنوا التصرف فى المال، والعلة التى برروا بها كل هذا السَّفَه أن شعيباً حليم رشيد ؛ فكيف يدعوهم إلى ما يخالف أهواءهم ؟

ويأتى الحق سبحانه بما قاله شعيب - عليه السلام - فيقول جَلَّ شأنه :

---

(١) الحلم : الأناة وضبط النفس والعقل، فهو حليم أى: متأنٍّ عاقل ضابط لنفسه بعيد عن الجهل والحمق والطيش.

والحليم: من أسماء الله الحسنى، قال تعالى: ﴿ .. وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ⟨٢٣٥⟩ ﴾ [البقرة] ووصف الله خليله إبراهيم بقوله: ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ ⟨٧٥⟩ ﴾ [هود] أما قوله تعالى: ﴿ .. إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ⟨٨٧⟩ ﴾ [هود] فهو وصف بالحلم والرشد على سبيل التهكم من الكفار برسولهم شعيب عليه السلام. [القاموس القويم ١/ ١٦٩ ، ١٧٠]

﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ[(1)] مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ[(2)] أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ[(3)] ﴿٨٨﴾ ﴾

وهنا يعلن لهم شعيب - عليه السلام - أنه على يقين من أن الله سبحانه وتعالى قد أعطاه حجة ومنهجاً ، وقد رزقه الرزق الحسن الذى لا يحتاج معه إلى أحد ؛ فأمور حياته ميسورة[(4)] .

وقد يكون المقصود بالرزق الحسن رحمة النبوة .

ثم يقول الحق سبحانه ما جاء على لسان شعيب عليه السلام :

﴿ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ .. ﴿٨٨﴾ ﴾ [هود]

أى : أننى أطبق ما أدعوكم إليه على نفسى ؛ فلا أنقص كيلاً أو أخسر ميزاناً ، ولا أبخس أحداً أشياءه ؛ لأنى لا أعبد غير الله .

(١) بينة : حجة وبرهان . وبان الشيء يبين بياناً : ظهر واتضح فهو بيِّن ، وهى بينة ، أى : ظاهر وظاهرة ، ويستعمل البين والبينة بمعنى المظهر والمظهرة والموضح والموضحة ، وبالمعنيين يُفسَّر قوله تعالى : ﴿ كَمْ آتَيْنَاهُم مِّنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ .. ﴿٢١١﴾ ﴾ [البقرة] أى : واضحة لا شك فيها . أو هى مبينة للحق مؤيدة له ، مظهرة لأمره . [القاموس القويم] .

(٢) إن - هنا - نافية ، بمعنى «ما» أو «لا» أى : ما أريد - أو لا أريد - إلا الإصلاح .

(٣) أناب العبد إلى ربه : رجع إليه وتاب وترك الذنوب . وقوله تعالى : ﴿ .. عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ ﴾ [هود] أى : إليه أتوب وأرجع . [القاموس القويم] .

(٤) الرزق الحسن : الواسع الحلال ، وكان شعيب عليه السلام كثير المال ، قاله ابن عباس وغيره . وقيل : أراد به الهدى والتوفيق ، والعلم والمعرفة . قاله القرطبى فى تفسيره (٤/٣٤٠٨) .

وكلمة «أخالف»[١] تدل على اتجاهين متضادين ، فإن كان قولك بهدف صرف إنسان عن فعل لكى تفعله أنت ؛ تكون قد خالفته «إلى» كذا ، وإن كنت تريده أن يفعل فعلاً كيلا تفعله أنت ؛ تكون قد خالفته «عن» كذا.

فشعيب - عليه السلام - يوضح لهم أنه لا ينهاهم عن أفعال ؛ ليفعلها هو ؛ بل ينهاهم عن الذى لا يفعله ؛ لأن الحق سبحانه قد أمره بألا يفعل تلك الأفعال ، فالحق سبحانه هو الذى أوحى له بالمنهج ، وهو الذى أنزل عليه الرسالة.

وشعيب - عليه السلام - لا ينهاهم عن أفعال يفعلها هو ؛ لأنه لا يستأثر لنفسه بما يرونه خيراً ؛ فليس فى نقص الكيل والميزان ؛ أو الشرك بالله أدنى خير ، فكل تلك الأفعال هى الشر نفسه.

ويوضح لهم شعيب - عليه السلام - مهمة النبوة ؛ فيقول:

﴿ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ .. (٨٨) ﴾ [هود]

فالنبوات كلها لا يرسلها الله تعالى إلا حين يطم[٢] الفساد ، ويأتى النبى المُرسَل بمنهج يدل الناس إلى ما يصلح أحوالهم ؛ من خلال «افعل» و «لا تفعل» ويكون النبى المُرسَل هو الأسوة لتطبيق المنهج ؛ فلا يأمر أمراً هو عنه بنَجْوة[٣] ؛ ويطبق على نفسه أولاً كل ما يدعو إليه.

---

(١) قال أبو حيان فى قوله تعالى : ﴿ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ .. (٨٨) ﴾ [هود] المعنى : لست أريد أن أفعل الشىء الذى نهيتكم عنه ، من نقص الكيل والوزن واستأثر بالمال . قال ابن عطية وقتادة : لم أكن لأنهاكم عن أمر ثم أرتكبه ، فعلى هذا الظاهر أن قوله تعالى : ﴿ أَنْ أُخَالِفَكُمْ .. (٨٨) ﴾ [هود] فى موضع المفعول لأريد ، أى : ما أريد مخالفتكم ، أى أكون خلفاً منكم ، ويكون خالف بمعنى خلف نحو جاوز وجاز وتتعلق إلى ما خالفتكم ، وقال الزجاج : ما أقصد بخلافكم إلى ارتكاب ما أنهاكم عنه (تفسير البحر المحيط ٦/ ١٩٨ باختصار) .

(٢) طم الشىء : عظم وعلا . وطم الماء إذا كثر . وجاء السيل فطم كل شىء أى : علاه . والمقصود أن يكثر الفساد وينتشر ويصبح فساداً عاماً يعم البلاد والعباد . وانظر [لسان العرب - مادة : طمم].

(٣) النجوة : ما ارتفع من الأرض فلم يعله السيل . أى : أنه مكان مرتفع . والمقصود : أنك بعيد عما تأمر به . [وانظر اللسان مادة : نجو].

ولذلك قال شعيب - عليه السلام - :

﴿ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاَحَ مَا اسْتَطَعْتُ .. (٨٨) ﴾ [هود]

لأن الله سبحانه وتعالى لا يكلف نفساً إلا وسعها، وما يدخل فى طوعها.

ويقول شعيب - عليه السلام - بعد ذلك :

﴿ .. وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ (٨٨) ﴾ [هود]

وهكذا نعلم أن هناك فرقاً بين العمل ؛ وبين التوفيق فى العمل ؛ لأن جوارحك قد تنشغل بالعمل ؛ ولكن النية قد تكون غير خالصة ؛ عندئذ لا يأتى التوفيق من الله.

أما إن أقبلت على العمل ؛ وفى نيتك أن يوفقك الله سبحانه لتؤدى هذا العمل بإخلاص ؛ فستجد الله تعالى وهو يصوِّب لك أىَّ خطأ تقع فيه ؛ وستنجز العمل بإتقان وتشعر بجمال الإتقان ، وفى الجمال جلال .

والحق سبحانه وتعالى يقول هنا ما جاء على لسان شعيب عليه السلام : ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ ؛ أى : أنه لا يتوكل إلا على الله ؛ ولا يصح أن تعطف على هذا القول شيئاً ؛ لأنك إن عطفت على هذا القول وقلت «على الله توكلت وعليك» ؛ فتوقع ألا يوفقك الله ، لأنك أشركت أحداً غير الله [1].

ونجد فى القرآن الكريم قول الحق سبحانه على لسان هود عليه السلام :

﴿ تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ .. (٥٦) ﴾ [هود]

---

(١) عن حذيفة رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : «لا تقولوا ما شاء الله وشاء فلان، قولوا: ما شاء الله ثم شاء فلان» أخرجه أحمد فى مسنده (٥/ ٣٨٤) وأبو داود فى سننه (٤٩٨٠) والحاكم فى مستدركه (٣/ ٤٦٢). قال النووى فى الأذكار (ص ٣١٨) : «هذا إرشاد إلى الأدب، وذلك أن الواو للجمع والتشريك، وثم للعطف والتراخى، فأرشدهم ﷺ إلى تقديم مشيئة الله تعالى على مشيئة من سواه».

ويجوز لك هنا أن تعطف.

ولك أن تتذكر قول أحد العارفين [١] : «اللهم إنى أستغفرك من كل عملٍ قصدتُ به وجهك فخالفنى فيه ما ليس لك».

فلا تترك شيئاً يزحف على توكلك على الله تعالى ؛ لأنك إليه تنيب ؛ وترجع ؛ كما قال شعيب عليه السلام : ﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾.

ويقول الحق سبحانه وتعالى من بعد ذلك :

﴿وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ [٢] شِقَاقِيٓ [٣] أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾﴾

يقول لهم شعيب عليه السلام : أرجو ألا تحملكم عداوتكم لى على أن تجرموا جُرْماً ؛ يكون سبباً فى أن ينزل الحق سبحانه بكم عقاباً ، مثلما أصاب القوم

(١) هو : مطرف بن عبد الله بن الشخير ، كان يلبس الصوف و يجلس مع المساكين . وقد أورد أبو نعيم هذا الأثر فى حلية الأولياء (٢/ ٢٠٧) وابن رجب الحنبلى فى جامع العلوم (ص٢٧) . وقد أورداه تاماً والعطف فيه من تمام الدعاء ، وليس عطفاً مغايراً.

(٢) جرم الشيء جرماً : قطعه ؛ وغلب على فعل الشر . يقال : جَرَمَ : أذنب وجنى جناية . وجرم المال : كسبه من أى وجه . وجَرمه : حمله على فعل شر أو ذنب أو جُرْم . قال تعالى : ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا .. ﴿٨﴾ ﴾ [المائدة] أى : لا يحملنكم بغض قوم على عدم العدل ، أى : التزموا العدل حتى مع من تكرهونهم . أى : اعدلوا دائماً ، فالعدل أقرب للتقوى .
وأجرمه : دفعه وحمله على فعل الجرم والشر . وقرىء (ولا يُجْرِمَنَّكُم) - بضم الياء من الرباعى المزيد بالهمزة - أى : لا يحملنكم على فعل الجرم والظلم . [القاموس القويم].

(٣) شاقه مشاقة وشقاقاً : خالفه . ومنه قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ .. ﴿١٣﴾ ﴾ [الأنفال] . وقوله تعالى : ﴿ وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ .. ﴿١٣٧﴾ ﴾ [البقرة] أى : فى خلاف ونزاع . [القاموس القويم ١/ ٣٥٣].

الذين سبقوكم ؛ من الذين خالفوا رسلهم ؛ فأنزل الله - عز وجل - عليهم العذاب كالغرق ، والرجفة ، والصيحة ، والصاعقة [١] ؛ فاحذروا ذلك .

وشعيب عليه السلام ينصحهم هنا حرصاً منه عليهم ، على الرغم من علمه أنهم يكنون له العداء ؛ لأنه دعاهم إلى ترك عبادة الأصنام التي عبدها آباؤهم ؛ ونهاهم عن إنقاص الكيل والميزان، وألا يبخسوا الناس أشياءهم؛ وسبق أن عذَّب الحق سبحانه المخالفين لشرع الله من الأمم السابقة ؛ ويذكرهم شعيب - عليه السلام - بأقرب من عُذِّبوا زماناً ومكاناً ؛ وهم قوم لوط .

يقول الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك :

﴿ وَٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ [٢] ﴿٩٠﴾ ﴾

وهذه الآية تبين لنا أن الحق سبحانه لا يغلق أمام العاصى - حتى المُصِرّ على شيء من المعصية - باب التوبة .

ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الله أفرح بتوبة عبده من أحدكم سقط [٣] على بعيره وقد أضله فى أرض فلاة [٤] » [٥] .

---

(١) يقول الحق سبحانه : ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [العنكبوت] .

(٢) الودود : من أسماء الله الحسنى ، وهو صيغة مبالغة أى : كثير الود . [القاموس القويم ٢/ ٣٢٦] والود : الحب ، قال تعالى : ﴿ .. سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾ ﴾ [مريم] أى : محبة منه تعالى ومحبة فى قلوب الناس .

(٣) سقط على بعيره : أى : صادفه وعثر عليه من غير قصد فظفر به ، ومنه قولهم : على الخبير سقطت . قاله ابن حجر العسقلانى فى فتح البارى (١١/ ١٠٨) .

(٤) الفلاة : الصحراء ليس بها ماء ولا أنيس . وهى : القفر من الأرض لأنها فليت عن كل خير أو فطمت وعزلت . [لسان العرب] .

(٥) متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٣٠٨ ، ٦٣٠٩) ، وأخرجه مسلم فى صحيحه (٢٧٤٤) عن عبد الله بن مسعود . واللفظ للبخارى .

ولنا أن نتخيل بماذا يشعر من فقد بعيره ؛ وهذا البعير يحمل زاد صاحبه ورَحْله ؛ ثم يعثر الرجل على بعيره هذا.

لابد - إذن - أن يفرح صاحب البعير بالعثور عليه.

والحق سبحانه يقول هنا ما جاء على لسان شعيب - عليه السلام - لقومه:

﴿ وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ .. (٩٠) ﴾ [هود]

وما دمتم ستستغفرونه عن الذنوب الماضية ؛ وتتوبون إليه ؛ بألا تعودوا إلى ارتكابها مرة أخرى ؛ فالحق سبحانه لا يرد مَنْ قصد بابه: ﴿ .. إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ (٩٠) ﴾ لأن مغفرته تستر العذاب، ورحمته تمنع العذاب.

وجاء الحق سبحانه هنا بأوسع المعاني: المغفرة، والرحمة، ومعهما صفته «الودود» ؛ وهي من الود ؛ والود هو الحب ؛ والحب يقتضي العطف على قدر حاجة المعطوف عليه.

ولله المثل الأعلى: نرى الأم ولها ولدان: أولهما قادر ثرى يأتي لها بما تريد ؛ وثانيهما ضعيف فقير ؛ فنجد قلب الأم - دائماً - مع هذا الضعيف الفقير ؛ وتحنُّن قلب القويِّ القادر على الفقير الضعيف.

ونجد المرأة العربية القديمة تجيب على من سألها: أي أبنائك أحب إليك؟ فتقول: الصغير حتى يكبر ؛ والغائب حتى يعود ؛ والمريض حتى يشفى.

إذن: فالحب يقتضي العطف على قدر الحاجة.

ويقول الحق سبحانه في الحديث القدسي:

«يا بن آدم ؛ لا تَخَافنَّ من ذي سلطان ؛ ما دام سلطاني باقياً ؛ وسلطاني لا ينفد[1] أبداً. يا بن آدم لا تَخْشَ من ضيق رزق ؛ وخزائني ملآنة، وخزائني

(١) لا ينفد: لا ينتهي. ونفد ينفد نفداً ونفاداً: فني وانقطع ولم يَبْقَ منه شيء. قال تعالى: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ .. (٩٦)﴾ [النحل]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِن نَّفَادٍ (٥٤)﴾ [ص]. أي: أنه رزق دائم لا انقطاع له. [القاموس القويم].

لا تنفد أبداً . يا بن آدم خلقتك للعبادة ؛ فلا تلعب ، وضمنت لك رزقك فلا تتعب ، فَوَعزَّتى وجلالى إن رضيت بما قسمتُه لك أرحتُ قلبك وبدنك ؛ وكنتَ عندى محموداً ؛ وإن أنت لم ترض بما قسمتُه لك ؛ فوعزتى وجلالى لأسلِّطنَّ عليك الدنيا ، تركض فيها ركض[1] الوحوش فى البرية[2] ؛ ثم لا يكون لك منها إلا ما قسمته لك . يا بن آدم خلقت السموات والأرض ولم أعْىَ[3] بخلقهنَّ ؛ أيعييني رغيف عيش أسوقه لك؟ يا بن آدم لا تسألني رزق غد كما أطلب منك عمل غدٍ . يا بن آدم أنا لك مُحبٌّ ؛ فبحقى عليك كنْ لى مُحبّاً» .

وهذا الحديث الكريم يبيِّن مدى مودة الله سبحانه لخلقه ؛ تلك المودة التى لا تستوعبها القلوب المشركة .

ويأتى الحق - سبحانه وتعالى - بعد ذلك بقول أهل مدين رَدّاً على شعيب - عليه السلام - :

﴿ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ[4] كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ[5] لَرَجَمْنَٰكَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ ﴾

---

(١) الركض : الجرى والعَدْو . قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ [الأنبياء] أى : يجرون ويفرون كناية عن الفزع والخوف الشديد . والركض : الضرب بالرجل ، قال تعالى : ﴿ ارْكُضْ بِرِجْلِكَ .. ﴿٤٢﴾ ﴾ [ص] أى : اضرب بها . [القاموس القويم] .

(٢) البرية : الصحراء . والجمع : البرارى . والبر : ضد البحر . [راجع : مختار الصحاح - مادة : برر] .

(٣) لم أعى بخلقهن : لم أعجز عنه ولم أطق إحكامه . والإعياء : الكلال والتعب . [من لسان العرب] .

(٤) الفقه : الفهم . وفقه يفقه فهو فقيه : صار عالماً فاهماً . والفقه فى الاصطلاح : علم أحكام العبادات والمعاملات ، وهو فرع من فروع المعارف الدينية . قال تعالى : ﴿ لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ .. ﴿٤٤﴾ ﴾ [الإسراء] أى : لا تفهمونه . وقال تعالى : ﴿ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ .. ﴿١٢٢﴾ ﴾ [التوبة] أى : ليدرسوا أحكام الدين وليتعلموها . [القاموس القويم ٢/ ٨٦] .

(٥) الرهط : جماعة دون العشر من الرجال ، ورهط الرجل عشيرته وقبيلته ، لا واحد له من لفظه . قال تعالى : ﴿ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ .. ﴿٩١﴾ ﴾ [هود] أى : ولولا عشيرتك من الرجال لرجمناك . وقوله تعالى : ﴿ تِسْعَةُ رَهْطٍ .. ﴿٤٨﴾ ﴾[النمل] من إضافة الشىء إلى ما يبينه . [القاموس القويم١/ ٢٧٨] .

وهذا يُضاهي قول مشركي قريش لرسول الله ﷺ ، فقد قالوا:

﴿قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ .. ۝٥﴾ [فصلت]

والإيمان يتطلب قلباً غير ممتلىء بالباطل ؛ ليُحسن استقباله ؛ أما القلوب الممتلئة بالباطل، فهى غير قادرة على استقبال الإيمان ؛ إلا إذا أخلت العقولُ تلك القلوبَ من الباطل، وناقشت العقول كُلاً من الحق والباطل ، ثم تأذن لما اقتنعت به أن يدخل القلوب.

ولذلك نجد الحق سبحانه وتعالى يطبع ويختم على القلوب الممتلئة بالكفر ؛ فلا يخرج منها الكفر ولا يدخل فيها الإيمان.

ولم يكتف أهل مدين بإعلان الكفر ؛ بل هددوا شعيباً وقالوا:

﴿.. وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ۝٩١﴾

[هود]

وهذا التهديد يحمل تحدِّياً، وكأنهم ظنوا أن بقدرتهم الفتك به ؛ لأنهم يبغضون حياته ؛ وأعلنوا حجة واهية ؛ وهى أن رهطه - أى: قومه وأهله ؛ لأن الرهط هم الجماعة التى يتراوح عدد أفرادها بين ثلاثة وعشرة أفراد - ما زالوا على عبادة الأصنام ؛ وأن هذا الرهط سيغضب لأى ضرر يصيب شعيباً ؛ وتناسوا أن الذى أرسل شعيباً - عليه السلام - لا بد أن يحميه ، وهم - بتناسيهم هذا - حققوا مشيئة الله - عز وجل - بأن يُسخِّر الكفر لخدمة الإيمان.

ومثال ذلك: هو بقاء عم النبى ﷺ أبى طالب على دين قومه ؛ وقد ساهم هذا الأمر فى حماية محمد ﷺ فى ظاهر الأسباب.

ثم يأتي الحق سبحانه من بعد ذلك ردٌّ شعيب عليه السلام على قومه ؛ فيقول:

﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِيٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا(١) إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ(٢) ﴿٩٢﴾ ﴾

وهنا يتساءل شعيب عليه السلام باستنكار: أوضعتم رهطى فى كفة ؛ ومعزَّة الله تعالى فى كفة ؟ وغلَّبتم خوفكم من رهطى على خوفكم من الله ؟! ولم يأبه شعيب عليه السلام باعتزازهم برهطه أمام اعتزازه بربه ؛ لأنه أعلن - من قبل - توكله على الله ؛ ولأنه يعلم أن العزة لله تعالى أولاً وأخيراً.

ولم يكتفوا بذلك الاعتزاز بالرهط عن الاعتزاز بالله ؛ بل طرحوا التفكير فى الإيمان بالله وراء ظهورهم ؛ لأن شعيباً عليه السلام يقول لهم:

﴿ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا .. ﴿٩٢﴾ ﴾ [هود]

أى: لم يجعلوا الله - سبحانه - أمامهم ، فلم يأبهوا بعزة الله ؛ ولا بحماية الله ؛ وجعلوا لبعض خلقه معزَّة فوق معزَّة الله.

ولم يقل: (ظِهْرِيًّا) نسبة إلى (الظهر) ، فعندما ننسب تحدث تغييرات ، فعندما ننسب إلى اليمن نقول: يمنىّ . ونقول: يمانىّ ، فالنسب هنا إلى الظهرى ، وهى المنسى والمتروك ، فأنت ساعة تقول : أنت طرحت فلاناً وراء ظهرك ، يعنى جعلته بعيداً عن الصورة بالنسبة للأحداث ، ولم تحسب له حساباً . إذن: فهناك تغييرات تحدث فى باب النسب(٣) .

---

(١) الظهرىّ : المنسى المتروك وراء الظهر ، يقال: جعله ظهرياً، أى: جعله نسياً منسياً. قال تعالى: ﴿ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا .. ﴿٩٢﴾ ﴾ [هود] أى: نسيتم الله وحقوقه عليكم. [القاموس القويم ١/ ٤١٩].

(٢) المحيط: من أسماء الله الحسنى ، أى: المسيطر على كل شىء. وقال تعالى: ﴿ .. وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ ﴾ [البقرة]. أى: مسيطر عليهم لا يملكون منه هرباً ولا فراراً. [القاموس القويم ١/ ١٧٨].

(٣) النسب باب من أبواب علم الصرف .

ويذكّرهم شعيب عليه السلام بقوله :

﴿ .. إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ ﴾ [هود]

أى : أن كل ما تقولونه أو تفعلونه محسوب عليكم ؛ لأن الحق سبحانه لا تخفَى عليه خافية ، وقد سبق أن عرفنا أن القول يدخل فى نطاق العمل ؛ فكلُّ حدث يقال له : «عمل» ؛ وعمل اللسان هو القول ؛ وعمل بقية الجوارح هو الأفعال .

وقد شرَّف الحق سبحانه القول لأنه وسيلة الإعلام الأولى عنه سبحانه .

يقول الحق سبحانه من بعد ذلك ما جاء على لسان شعيب عليه السلام :

﴿ وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ(1) إِنِّى عَٰمِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ وَٱرْتَقِبُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾ ﴾

إذن : فشعيب عليه السلام عنده القضية المخالفة ؛ لأن الله تعالى عنده أعزُّ من رهطه ؛ وباعتزازه بربه قد آوى إلى ركن شديد ، وبهذا الإيمان يعلن لهم : افعلوا ما فى وُسْعكم ، وما فى مُكْنتكم هو ما فى مُكْنة البشر ، وسأعمل ما فى مُكْنتى ، ولست وحدى ، بل معى الله سبحانه وتعالى ؛ ولن تتسامى قوتكم الحادثة على قدرة الله المطلقة .

ومهما فعلتم لمعارضة هذا الإصلاح الذى أدعوكم إليه ؛ فلن يخذلنى الذى أرسلنى ؛ وما دمتم تريدون الوقوف فى نفس موقف الأمم السابقة التى

(١) المكانة : رفعة الشأن والرزانة والتؤدة ، قال تعالى : ﴿ قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ .. ﴿١٣٥﴾ ﴾ [الأنعام] أى : برزانة وتؤدة وتبصُّر . وقرىء : «على مكاناتكم» بالجمع . [القاموس القويم ٢/ ٢٣٢] .

تصدت لموجات الإصلاح السماوية ؛ فهزمهم الله سبحانه بالصيحة ، وبالرجفة ، وبالريح الصرصر [1] ، وبالقذف بأى شيء من هذه الأشياء ، وقال لهم : اعملوا على مكانتكم ، وإياكم أن تتوهموا أنى أتودد إليكم ؛ فأنا على بينة من ربى ، ولكنى أحب الخير لكم ، وأريد لكم الإصلاح .

ولم يَقُلْ شعيب عليه السلام هذا القول عن ضعف ، ولكن قاله رداً على قولهم :

﴿ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ [2] لَرَجَمْنَاكَ .. (٩١) ﴾ [هود]

وأبرز لهم مكانته المستمدة من قوة مَنْ أرسله سبحانه وتعالى ، وقال:

﴿ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ ..(٩٣) ﴾ [هود]

وهكذا أوضح لهم: أنا لن أقف مكتوف الأيدى ، لأنى سأعمل على مكانتى ، و﴿ .. سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ (٩٣) ﴾ [هود]

أى: أن المستقبل سوف يبيِّن مَنْ منَّا على الحق ومَنْ منَّا على الضلال ، ولمن سيكون النصر والغلبة ، ومن الذى يأتيه الخزى ؛ أى: أنْ يشعر باحتقار نفسه وهوانها ؛ ويعانى من الفضيحة أمام الخلق ؛ ومَنْ منَّا الكاذب ، ومَنْ على الحق.

وكان لا بد أن تأتى الآية التالية:

---

(١) الريح الصر والصرصر : شديدة البرد . وقيل : شديدة الصوت . قال الزجاج : الصر والصرة شدة البرد . [قاله ابن منظور فى اللسان].

(٢) الرهط : الجماعة دون العشر من الرجال ، ورهط الرجل عشيرته وقبيلته ، لا واحد له من لفظه . قال تعالى: ﴿ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ .. (٩١) ﴾ [هود] أى: ولولا عشيرتك من الرجال لرجمناك . وقوله تعالى: ﴿ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ .. (٤٨) ﴾ [النمل] من إضافة الشيء إلى ما يبينه . [القاموس القويم ١/ ٢٧٨].